رسوم الاطفال هو نزوعه الانفعالي الحاد ، بحكم واقع النزوح ، والمناخ الاجتماعي الجديد ، والتوتر السياسي والعسكري . مع ذلك فقد تكفلت التجربة باكتشاف « المميز والمختلف » في رسوم اطفال المخيمات . وقد احتاجت التجربة الى ثلاثة اشهر تقريبا من العمل اليومي ، لكي تكتمل ملامح صورة « عالم اطفال المخيمات » التي قدمت بألوان اصحابها لاول مرة في اواخر تشرين الثاني ١٩٦٨ .

(٣)

لقد وجدنا من العرض السابق ، ان عرض هذه الرسوم ، شأنها شأن اية رسوم أخرى للاطفال ، يجعلها معرضة للنظر بطرق مختلفة وعبر معايير متباينة ، فرسوم اطفال البقعة ، ستجد نفسها امام عدة اشكال من الرؤية ، كثيرون سيعتبرونها وثائق ومستمسكات الادانة ضد القهر والعسف ، آخرون سيرون فيها تسجيلا واقعيا حيا، او مضاهاة فذة للطبيعة . سيحلو لبعض الدارسين ان يدخلوا هذه الرسوم على مختبراتهم ، ليبحثوا في سيكلوجية أطفال المخيم ، او يروا فيها أداة لنظرة اجتماعية دارسة . لا أحد يمنع كل من يرغب في بحث موضوعات تمس طبيعة هذه الرسوم من قريب او بعيد ، كالذوق العام ، الثقافة ، اللون ، البيئة ، الازياء . من جهة اخرى ، سيثار موضوع هذه الرسوم بصور مختلفة : فقد يرغب البعض أن يعتبر رسوم الاطفال مسألة عاطفية محضة ، نقاد او فنانون قد لا يرون فيها سوى مساحات الالوان ، والمعالجة التشكيلية والعديد من التخطيطات الجريئة ، اصحاب الميول الزخرفية سوف يظهرون اعجابهم ببعض الصور المتقنة ، كتاب الصحافة وذوو الاهتمام بالاعلام سوف يرون في رسوم الاطفال وجها دعاويا وانسانيا بذات الوقت . الكثيرون تستهويهم دراسة مسائل الدين ، العادات الاجتماعية والثقافية وسيتساءلون عن مكمنها في هذه الرسوم .

مرة أخرى ، سننظر الى هذه الرسوم ، ونحن مثقلون بالاحكام المسبقة، والتصورات ، والترسبات الذوقية والثقافية ، سننظر اليها ونحن نمعن في اقحام منطقنا وذكائنا على رسومهم . ننظر — دون أن نقصد أحيانا — فنرى رسومهم ، وكأنها رسوم للكبار ، او كأنها خاضعة لنفس القوانين ، ولنفس الجماليات ، ولنفس المعالجة . من أجل ذلك ، لا بد أن نعرف كيف يرسم الطفل ، حتى نستطيع أن ندرك ماذا يريد الطفل من هذه الرسوم ، وكيف ينبغي أن ننظر اليها .

عند الطفل ، لا تشكل عملية الرسم اكثر من وسيلة مناسبة للتعبير عما ينتابه ، انفعال معين ، معنى ، مثير خارجي ، او حركة ميكانيكية(١٧).

في البداية ، يكون هم الطفل اكتشاف المادة التي بين يديه ، فيحاول ان يجد لنفسه مكانا ، داخل المساحة الفارغة ، الممتدة أمامه (ورقة مثلا) ، ثم عندما يحتك جسم اللون بالورقة يحدث تلك الآثار والخدوش اللونية في المساحة البيضاء ، تثير هذه الخدوش فضوله ، فتنتابه الرغبة في تكرار الحركة الاولى ، وتتحول يده باللون الى ما يشبه « البندول » ، فتتحرك الى أعلى وأسفل ، يمينا ويسارا ، وكلما كانت قدرته في السيطرة على ساعده ، ثم على يده ، واخيرا على اصابعه اكبر ، تكون الحركة اكثر ايقاعية واقل تلقائية ، وتبدأ الخطوط بالتكسر ، ويبدأ الفعل الارادي غير الآلي، في احداث رموز لونية ، وفي اكتشاف الاشكال من جديد . وتظهر آثار البيئة ، المحيط الاجتماعي والثقافي ، تحفر فيه وترسب في اعماقه ، قوانين المجتمع ، اشكال الحياة والاجسام فيه ، لغته ، اخلاقياته ، الخ . وهو ما يولد عند الطفل نوعا من الادراك الكلي او المجمل ، الذي ينتهي به الى ايجاد صيغ شكلية عامة (رموز) تمثل الاجسام والموضوعات حوله(١٨) ويستخدم الطفل هذه الصيغ الشكلية في التعبير عن كل ما يختزنه الطفل في أعماقه ، من خبرات وأحلام وذكريات وواقع . ان هذه الحصيلة العامة والمختزنة لدى الطفل تنقل طبيعتها الانفعالية سواء كانت ساكنة او متحركة ، عبر الرسم الى الورق ، لتصيغ عالم الاطفال المتميز .

ان تناول الاطفال للموضوعات والاجسام والرموز يشبه السحر ، بكل ما يحمله عالم الاطفال من مجانية ويسر ، واذا كانت الاشياء الاثيرة لدى الاطفال تتحقق بما يشبه السحر ، بالاستعارة والخيال (تصبح العصا بين ساقي الطفل حصانا)، فان الاشياء المؤلمة تنزاح بما يشبه « السحر » أيضا .

عند رسوم الاطفال النازحين ، تجد هذه القوة « السحرية » على تمثيل الاشياء ، وقتلها او احيائها . تجد تلك الكوابيس وتلك الخبرات المستعادة والمسجلة بلمسات سحرية ولكن بقدر